كتاب

يلتزم كتاب الباحث الإيراني «في البحث عن الخيّام والرباعيات»، الذي صدرت نسخته العربية حديثاً بترجمة يوسف بكار، ببحث جادّ عن السمات الحقيقية للشاعر الفارسي (1048 - 1131)، بالنظر إلى الأساطير والأوهام العديدة التي نُسجت حوله

محمود منير

على مدار أكثر من ثلاثة عقود، أمضى الناقد والأكاديمي يوسف بكار (1942) رحلة بحث معمّقة وطويلة حول سيرة عمر الخيّام وأشعاره، موضحاً في أكثر من مؤلّف له عدم وجود ديوان منفرد متّفق عليه يضمّ رباعياته التي لا يُعلم إلى اليوم عددها والصحيح منها والمنحول، إذ تصل نسخها المختلفة إلى الآلاف. اشتغل صاحب كتاب «عصر أبي فراس الحمداني» ضمن مسارين؛ الأول تتبّع خلاله أعمال الشاعر الفارسي (1048 - 1131) بالفارسية التي تعلّمها وأتقنها والعربية كذلك، وأخباره في التراث، والدراسات المعاصرة حوله، وتأثيراته بالعربية وتأثيراته فيها، والثاني حقّق فيه ترجماته المتعدّدة، معلّقاً عليها ومحدّداً الأخطاء الذي وقع فيها المترجمون وأسبابها.

في هذه الطريق الطويلة، يترجم بكّار مؤلّفاً جديداً بعنوان «وقفة مع الخيّام. في البحث عن الخيّام والرباعيات» (1965) للباحث الإيراني علي دشتي، والذي صدرت نسخته العربية حديثاً عن «الآن ناشرون وموزعون»، والتزم فيه بمنهج بحثي دقيق عن السمات الحقيقية للشاعر بالنظر إلى الأساطير والأوهام العديدة التي نُسجت حوله، والكشف عن رباعيته القليلة التي تضاعفت كثيراً بعد رحيله.

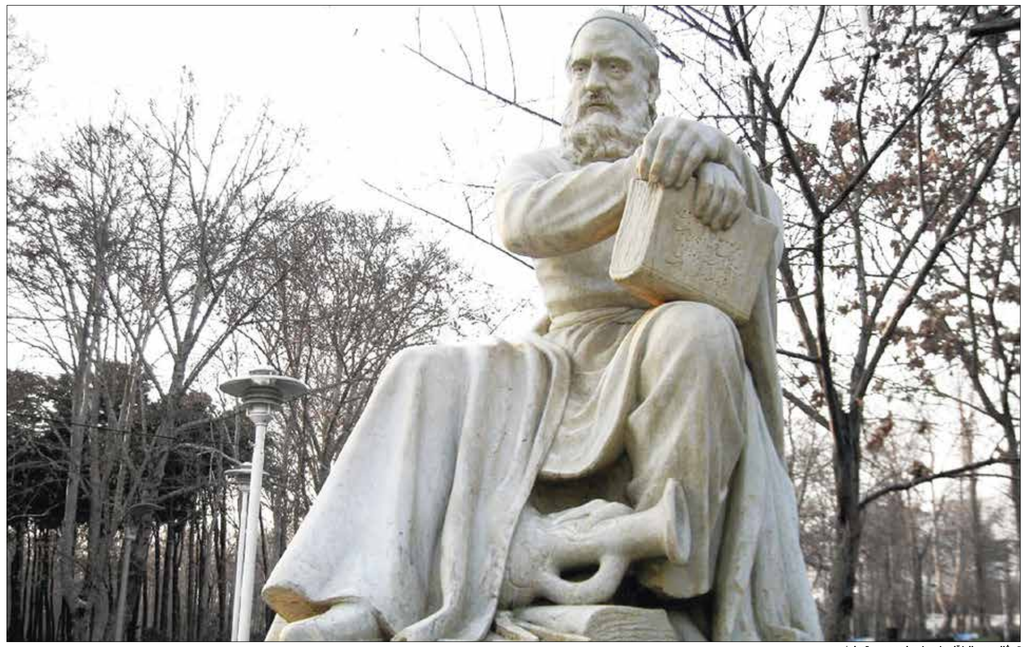
تمثال عمر الخيّام في نيسابور: مسقط رأسه

بلغت المؤلّف في تقديمه إلى أن الباحثيْن الروسي فالنتاين زوكوفيسكي والفرنسي جي. بي. نيقولا، تنبّها في ترجماتهما للخيّام إلى تلك التناقضات التي لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد، مع اكتفاء غالبية المستشرقين بترجمة أعداد من الرباعيات فحسب، مقابل قلّة منهم سعوا إلى غربلتها وتخليص صاحبها من سوءات روايات معاصريه، وهو ما رصده في القسم الأول من الكتاب.

بقدر ما تتّضح شخصية الخيّام الفيلسوف والرياضي التي كُتب عنها أكثر من ألفي كتاب ورسالة ومقالة، فإن الخيّام الشاعر لا يزال مجهولاً، بحسب دشتي، الذي يرى أن علّة الاضطراب والاختلاف مردّهما أن الرباعيات لم تُجمع خلال حياته، ويمكن القول إنه «لم تنشر له ولو رباعية واحدة، وليس ثمّة من معاصريه ممن عرضوا له في مناسبة ما من أشار إلى أنه قال شعراً».

ويضيف: «فلكي نهتدي إلى الخيّام الشاعر، لا بدّ من سلوك طريق غير الطريق المعروفة، أي أنه لا بد لكشف شخصية الشاعر ومعرفة سماته المعنوية من العودة إلى أشعاره، والاستعانة بأقواله، لأنه لا يمكن استجلاء سمات الشاعر بالاعتماد على رباعيات تحمل اسمه في مجاميع شتى. والرجوع إلى أعماله الثابتة له».

يعود دشتي بدايةً إلى الخيّام كما تحدّث عنه معاصروه، الذين يجمعون على زهده وحكمته وابتعاده عن كل قول أو فعل يُذهب عنه الهيبة والوقار، والاعتدال في كلّ أموره وشؤون حياته واتهمه البعض بالبخل في العلم؛ إذ لم تُعقد له حلقة تدريس ولم يخلّف تلاميذ له، حيث كان «ذا فلسفة خاصة، وليس صاحب مذهب فلسفي، أو طريقة فلسفية»، وهو يدين بقبول العقول لكنه لم يمتلك يقيناً قاطعاً في كلّ ما أوردته «فلسفة المشائين» التي بسطها معلّمه ابن سينا.

ينتقل بعدها إلى الشكوك التي تدور حول ما ألّفه صاحب «رسالة في الكون والتكليف»؛ حيث ورد أوّل ذكر لأشعاره العربية لدى العماد الأصفهاني بعد رحيل الخيّام بنحو نصف قرن، وإن وجد العديد من المؤرّخين أن نسبتها إليه أقرب في حال عبّرت عن شخصيته، ففي أمثلة عديدة منها ثمّة افتخار بعلمه وفلسفته وهو ما لا يتلاءم مع ما عُرف عنه من تواضع.

يُبيّن المؤلّف أن هناك من أعلام التاريخ العربي الذين لا يمكن تصنيفهم ضمن فرقة أو جماعة، مثل المعرّي الذي لا تستقيم نسبته إلى الإسماعيلية أو الهندوسية (البرهمية) أو التشيّع الذي اتهم به ابن سينا، ويضاف إليهم الخيّام الذي كان فوق التقسيمات المذهبية، كما حاول البعض في تصنيفه بالنظر إلى تحليل مضمون بعض الرباعيات. يقسّم دشتي المصادر التي يعود إليها للتحقّق من الرباعيات الأصلية التي كتبها الخيّام، إلى الكتب الأكثر موثوقية ومنها «التنبيه» للرازي و«مرصاد العباد» للدايّة و«جهانكشاي» للجويني، والتي تتضمّن ستّ عشرة رباعية مثل «هذا العالم الذي نجيء منه ونمضي/ لا بداية له ولا نهاية/ فليس ثمة من يقول صحيحاً: من أين جئنا وإلى أين نمضي».

> كانت الحيرة مركز فلسفة الشاعر الفارسي حول الخلق والحياة
>
> تنبّه مستشرقون إلى تناقضات في رباعيات نُسبت إليه

ويدقّق أيضاً مصادر أخرى للوقوف على التناقض في ما حوته وبين آراء الخيّام، ويتتبّع أيضاً مصادر جديدة بنفس الطريقة؛ حيث وصلت إلى ستّ وثلاثين رباعية بعد نحو مئة عام من رحيل الخيّام، وحوالي ستّين رباعية حتى منتصف القرن التاسع الميلادي، ما يقود إلى الافتراض أن تراخي سلطة الأشاعرة كان مدعاة لظهور رباعيات جديدة صاغ على منوالها آخرون.

يخلص دشتي في القسم الثالث والأخير المعنون بـ«الفكر الحائر»، إلى أن «مردّ شهرة الخيّام بين أرباب الذوق وتقدير المستشرقين له ينبع من حلوله في هذه الدائرة (الحيرة) ورأيه الثابت الذي أبداه؛ فكلّ أفكاره عن الخلق والبحث عن غاية معقولة له وتفكيره الدائم في أمر المعاد واختلال أمور العالم ولا معقولية القضايا المسلّم بها والشكّ في مقولات البشر العقدية واليأس من حياة أخرى؛ كل هذه جميعاً أوصلته إلى النتيجة التي انتهى إليها أو كان دليلاً على أنه يحرث في بحر».

ويرى أنه لم تكن للخيّام فرضية ثابتة جازمة، وربما كانت، لكنّه لم يفه بها، ويقال إنه كان معنياً بالفرضيات الرائجة في زمانه، ولا يرى بداية ونهاية لعالم الوجود، وكان يشكّ في دوران الأفلاك وسير السيارات (الكواكب) ويدعوها «المدبّر الحيوان»، ولم يقل بأي تأثير خارج التأثيرات الطبيعية للسيارات السبع؛ فموجودات الكرة الأرضية مركّبة من العناصر الأربعة، لكن ليس ثمة معلومات مسلّمة عن كيفية هذا التركيب وعلّته، ولن تطول بالمسائل الرياضية القاطعة.

ويستشهد دشتي هنا برباعية توضّح أن فهم الخيّام بأن عناصر تركيب الجسم الحي المتماسك في طريقها إلى الانحلال بحيث لا تعود إلى حالتها الأولى: «يا من هو نتاج أربعة عناصر وسبعة أفلاك/ إلام تظلّ متألّماً تفكّر فيها؟/ اشرب الخمرة، فقد قلتُ لك ألف مرّة: ليس لك عودة إليها/ فإذا مضيت مضيت».

الرقيب في السجن

يشير المترجم علي دشتي في تعريفه إلى مفارقة تتمثّل في كونه تقلّد مناصب سياسية عديدة؛ عضوا في البرلمان الإيراني لثماني دورات، وسفيراً لبلاده في مصر ولبنان، ووزير دولة، كما شغل كذلك منصبا في إدارة الرقابة على المطبوعات لكنه سُجن لأسباب سياسية أكثر من مرّة بين عشرينيات ومنتصف ثلاثينيات القرن الماضي. وترك مؤلّفات عدّة منها «أيام السجن» و«صورة حافظ الشيرازي» و«الخاقاني: الشاعر الذي عُرف متأخراً».

إطلالة

مائة سنة على قيام لبنان

قبل أن يغدو تاريخاً

الآن والكارثة أمام الجميع، يبدو مهمّاً أن تسترجع السلطة ماضيها وذكرياتها، أو أن يكون لها ماضٍ وذكريات. هي الآن تكافح لكي يكون لها تاريخ

عباس بيضون

يحتفلون الآن، على شاشات تلفزيون، وفي مرافق فنّية وثقافية شبه صامتة أيام كورونا، وفي مؤسّسات الدولة، رئاسة الجمهورية بخاصة، بمرور مائة سنة على قيام لبنان على النحو الذي نعرفه اليوم، لبنان الذي أضيفت آنذاك إلى الجبل الذي تسمّى به «جبل لبنان» مدن الساحل والجنوب وطرابلس وعكار والبقاع. إنها مائة سنة على إعلان 1920 للبنان الكبير، لا على استقلاله الذي انتُظر إعلانه 23 سنة إضافية، واقتضى تحقيقه جلاء الجيش الفرنسي الذي كان سلطة انتداب بل واحتلال. في عام 1920 إثر الانتداب الفرنسي على لبنان، أعلنت السلطة المنتدبة قيام لبنان الكبير تحت الانتداب الفرنسي.

قد يذكر اللبنانيون نتفاً من حكاية الاستقلال التي شملت سجن المسؤولين اللبنانيين الذين أعلنوه عام 1943. هذه، على الرغم من كونها مجال جدل وتنازع إلى اليوم، لا تزال حاضرة إلى حدّ ما في أي محاولة لتأسيس تاريخ راهن للبنان. لكن مائة سنة على إعلان لبنان الكبير ليست بالدرجة نفسها في الذاكرة، بل هي إذا استُعيدت بتضاعيفها ستعود معها النُسَخ الأسبق للنزاع الأهلي. ستبدو المناسبة نفسها اليوم بدون صاحب. في حينه كان الأمر يعني إضافة قدر من المناطق المسلمة في الغالب والتي منحت الجبل ساحلاً وسهولاً. لم يكن هذا بالطبع تمنّي المسلمين ولا وجهتهم. كانت الوحدة مع سورية هي متمنّاهم لا الانضمام إلى الجبل والانعزال عن المحيط الإسلامي. هذا ما كان عليه مسلمو هذه المناطق بشيعتهم وسنّتهم. كان لبنان الكبير في ذلك الحين هو لبنان المسيحي، لبنان الانتداب الفرنسي. هذا بالطبع تاريخ بائد؛ فالمناسبة لم تعد تعني المسيحيين بالدرجة نفسها. هم الذين أسّسوا لبنان ما لبثوا أن اضطرّوا إلى الانزواء فيه، وقبول غلبة إسلامية لا مناص منها.

مع ذلك تعني المناسبة للمسيحيين تأسيساً لبلد كانوا بالفعل مؤسّسيه، كما تعني بداية تاريخ كانوا أصحابه وكان، على أي نحو، تاريخهم، ومهما صار أو تحوّل يبقى تاريخهم، والعودة إليه عودة إلى لبنانهم. إنه وثيقة حقيقية وشهادة أكيدة لهم. قد لا تبدو الآن باهميتها الأولى؛ فقد عدا الزمن عليها، لكنها في السجال الثقافي للعلاقات الطوائفية دليل دامغ وحقّ تاريخي. بالطبع لم يعد المسلمون اللبنانيون ملحقين بالجبل. لقد عدت كالعادة حروب أهلية على المسيحيين الذين قلّما ربحوا حرباً أهلية. تجاوز المسلمون التفوّق الديمغرافي المسيحي آنذاك، ليس هذا فحسب، لكنهم ربحوا على المسيحيين أكثر من حرب أهلية، والآن يتنازعون بعضهم ضد بعض، على السدّة التي أخلاها المسيحيون الذين يبدو أنهم تركوا وراءهم، إلى الأبد، مرحلة الامتياز المسيحي الذي بدأ قبيل الانتداب ومعه. يبدو أن المسلمين الآن يتنازعون فيما بينهم. الشيعة هم اليوم في أعلى الهرم، بل هم قوّة لا يمكن صدّها. وليس في وجهها إلّا السلطة التي لا تجسر على مواجهتها. المسلمون بالطبع لا ينتمون إلى المائة سنة التي مرّت على قيام لبنان، لكنهم لا يحفرون في هذا التاريخ، ولا يهمّهم أن يُستعاد أو يُستذكر. لا يهمّهم أن يكون في الوقت نفسه عيد الانتداب وذكراه، فإن من عواقب هذا القرن ومن نتائجه أن الحلم العروبوي توارى.

> كان لبنان الكبير في ذلك الحين هو لبنان الانتداب الفرنسي

توافق اللبنانيون جميعهم على لبنان كهوية وكوطن نهائي، بل وتوافقوا على الامتياز اللبناني. لن يعود المسلمون وخاصة الشيعة بينهم إلى الحلم العروبوي. الطوائف تتنازع اليوم على لبنان، ولبنان بالنسبة للجميع هو العنوان والهوية. لا يهم المسلمين والشيعة بالأخص أن تعيّد السلطة اللبنانية، والفرع المسيحي منها، بمرور مائة سنة على قيام لبنان. لكن هذه المناسبة ليست من تاريخهم ولا بأس مع ذلك أن يتبنّوها ويضمّوها إليهم، كما سبق لهم أن تبنّوا لبنان وضمّوه.

تعيّد السلطة اللبنانية، وفرعها المسيحي بشكل خاص، بإعلان لبنان الكبير 1920. إنها، أي السلطة وماضيها المسيحي، بحاجة الى تاريخ، بحاجة بالطبع إلى ذاكرة. السلطة اللبنانية بكل أطرافها وفروعها هي الآن على الحافة، بل هي في الهوّة، ففي مواجهتها سلطة أخرى كاملة وتحدّيات لم تقدر عليها. الآن والكارثة أمام الجميع، يبدو مهماً أن تسترجع السلطة ماضيها وذكرياتها، أو أن يكون لها ماضٍ وذكريات، فهي الآن على وشك أن تغدو تاريخاً، هي الآن تكافح لكي يكون لها تاريخ.

(شاعر وروائي من لبنان)

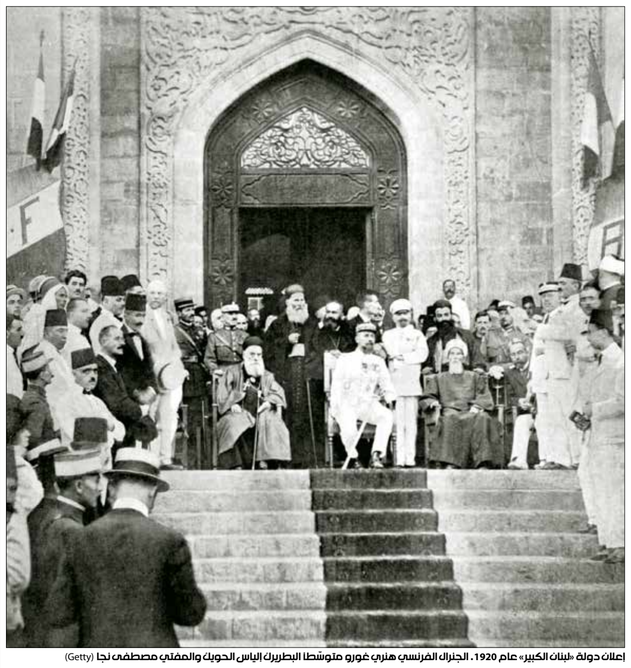
إعلان دولة «لبنان الكبير» عام 1920. الجنرال الفرنسي هنري غورو متوسّطاً البطريرك إلياس الحويك والمفتي مصطفى نجا (Getty)

متابعة

كامي برادون ملامح أولى من الأزرق الذي ننتمي إليه

نحو أركيولوجيا متخيّلة

تقدّم الفنانة الفرنسية، مساء غد في تونس، مشروعها الجديد الذي تشتغل عليه منذ سنوات في تونس وتقترح فيه مغامرة جديدة حين تذهب نحو التخييل

تونس ـ ليلى بن صالح

في العقود الأخيرة، حدث انفصال واضح بين الفنّانين والتصنيفات المكرّسة في الفن، مثل اللوحة والنحت والفوتوغرافيا، وحتى الأنماط الفنية الحداثية مثل الكولاج والتنصيبات. بات الفنان يفضّل صفة عامة شاملة تمكّنه - في كل مشروع - من أن يتحرّك بحرية، ومن التسميات الرائجة اليوم «فنان بصري»، وهي الصفة التي تتخذها التشكيلية الفرنسية كامي برادون (1993).

منذ 2016، تقيم برادون - بشكل غير منتظم - في تونس العاصمة، في ضاحية قرطاج- صالامبو تحديداً، وقد جعلت من إقامتها إطاراً لمشروع بعنوان «ميتافور.. الأزرق الذي ننتمي إليه» سوف تقدّم ملامح منه في أمسية نقاشية تديرها المصوّرة الفوتوغرافية ماريان كتزاراس، تقام عند السادسة من مساء غد الاثنين في «المعهد الثقافي الفرنسي» في تونس العاصمة.

تتضمّن الأمسية أيضاً عرضاً لفيديو بعنوان «Eye Contact» أنجزته برادون بمعيّة الكاتبة والفنانة المسرحية التونسية أميرة حمدي. يشير هذا اللقاء بين الفنانتين إلى رغبة في تداخل فنون كثيراً ما تفصلها جدران وهمية. يذكر تقديم «المعهد الثقافي الفرنسي» للعمل أن فكرته نابعة من محاولة برادون توظيف الحركة الجسدية أيضاً في أعمالها بغناء سرد قائم على الحركة والصوت يلتقي مع مشروع فنّي قوامه الصورة.

يبدو أن اختيار هذا العمل ليس مقدّمة اعتباطية قبل الحديث عن المشروع الجديد؛ «ميتافور.. الأزرق الذي ننتمي إليه»، حيث أن «Eye Contact» مثّل نقلة من الأعمال البصرية البحتة إلى استدعاء منظومة فنية أخرى، غالباً ما تكون هامشية في عالم الفن التشكيلي.

> تعتبر أن عملها تخييلٌ تجريبيّ يحاول أن يربط بين ضفتي المتوسط

في موقعها الإلكتروني، تضع برادون تقديماً لمشروع «ميتافور.. الأزرق الذي ننتمي إليه» تحت إشارة «بصدد الإنجاز - 2020». وفيه نتعرّف على المغامرة التي تقود الفنانة الفرنسية - هذه المرة - إلى منطقة جديدة كلياً، إلى مجال التخييل تحديداً؛ حيث تسمّي عملها «تخييلاً تجريبياً يحاول أن يربط ضفّتي المتوسط».

قد يكون استعمال مصطلحات مثل ضفّتي المتوسّط من الكليشيهات التي كثيراً ما تتردّد لدى الفنانين الفرنسيين حين يتجهّون جنوباً، غير أن مشروع برادون يبدو على مسافة كافية من هكذا كليشيهات. تشير الفنانة إلى أن فكرة العمل بدأت من زيارة سابقة إلى تونس سمعت فيها عن غرق سفينة إغريقية قديمة على شواطئ مدينة المهدية التونسية، وقد كانت هذه السفينة تحمل مجموعة كبيرة من الأعمال الفنية، لعلّها إلى اليوم تقبع في أعماق البحر.

من هذه الحكاية بدأت فكرة «ميتافور»، وتعني الكلمة في الإغريقية القديمة «النقل» فيما تذهب اليوم إلى معان أخرى كثيرة أبرزها معنى الاستعارة اللغوية. هكذا تتخيّل برادون أن عملية نقل للفن قد توقّفت ويمكن إحياؤها، ومن هنا روح التجريب والتخييل اللذين تتحدّث عنهما. فالفن المعاصر يمكنه أن يفعل ما لا يفكّر في فعله الأركيولوجيون وإيصال القطع الفنية التي كان من المفترض أن تصل منذ قرون.

من مشروع «ميتافور» (موقع الفنانة)

فعاليات

يقيم غاليري «رؤى 32» في عمّان حالياً معرضاً بعنوان **الأمل** يشارك فيه الفنانون **اماني هنداوي**، **حسن جلال**، **دانا برقاوي** (اللوحة)، **فادي حدادين**، تتنوع الاعمال بين حروفيات وتوظيف للرموز التراثية، كما تعرض بعض الاعمال التجريدية، والى جانب الفنانين الاربعة تتاح فرصة لعرض لوحات لفنانين شباب.

ينظم «غاليري المرخية» في «مطافئ مقر الفنانين» في الدوحة، الجزء الثاني من المعرض الجماعي **2030**، ويشارك فيه مجموعة من الفنانين القطريين والعرب وهم **ابتسام الصفار** و**شوق المانع** و**صباح الاربيلي** و**فاطمة الشيباني** و**عبد العزيز يوسف** و**علي دسمال الكواري** و**مبارك آل ثاني** (اللوحة) ومريم الحميد، حيث يتواصل عرض الاعمال حتى 2 تشرين الاول/ اكتوبر المقبل.

تقيم مدرسة لندن للاقتصاد ندوة افتراضية عند الواحدة من بعد ظهر الثلاثاء، 15 من الشهر الجاري، تحت عنوان **الاستفادة من راس المال الاخلاقي والاجتماعي** يطرح فيها المشاركون مقاربات لدور المجتمعات الدينية في تغيير النظام العالمي يشارك فيها الاكاديميون **محمد كروسين** و**لوريتا مينغيلا** (الصورة) و**نِك روبينز**.

تحت عنوان **حديقة صامتة** يحتضن غاليري «زاوية» في رام الله معرضاً للفنان الفلسطيني **بشار الحروب**، ويتواصل حتى الثلاثين من تشرين الاول/ اكتوبر المقبل. يضم المعرض اعمالاً تقدم مشاهد من حديقة الفنان الشخصية ومرسمه وحياته بين النباتات في عزلة فترة الحجر المنزلي بسبب وباء كوفيد-19.